المقدمة

الحمد لله، ونشهد أن لا اله إلا الله، وأن خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليمات وبعد:

فإن قضية الاختلاف ليست وليدة العصر بل هي قديمة قدم البشر، ولن تنتهي بنهاية عصر من العصور، فالاختلاف من طبيعة البشر، نظرًا لاختلاف حظهم من العلم، وقدرتهم على الفهم، وتنوع ميولهم، وتباين بيئاتهم، وقد ورد الاختلاف في المسائل الاجتهادية عن الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة المعتبرين، لكن اختلافهم تميز بأن أساسه فهم طبيعة الاختلاف، ورائده إصابة الحق والنصح للخلق، ومادته الحجة والبرهان من السنة والقرآن، وطريقته الرفق والحسنى، ونهايته الموافقة مع الأجر، أو عدمها مع التماس العذر، فاختلافهم لم يمنع ائتلافهم.

ولم يكن الاختلاف عندهم سببًا في انتقاص المخالف، أو اتهامه والتعريض به، أو بغضه والتحامل عليه. وما أجمع وأمتع وأنفع مقولة الإمام ابن حنبل حيث قال: "لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق بن راهويه، وإن كان يخالفنا في أشياء؛ فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضًا"([1]).

كان السابقون أصحاب بصر وبصيرة، فأدركوا أن الاختلاف – في غير الأصول الثابتة المعلومة من الدين بالضرورة– كثير الوقوع، وينبغي أن لا يكون سببًا للشقاق، ولا طريقًا للافتراق، بل إذا وقع الاجتهاد من أهله وفي موضعه، فكلٌّ وما أداه إليه اجتهاده لا يلزم أحدهم الآخر بقوله، بل لا ينكر أحدهم على الآخر فعله.

والإمام مالك كان من الفقه والورع بمكان عندما أراد الخليفة المنصور أن يعمل المسلمون بما في موطأ مالك ويَدَعوا ما سواه، فأبى وقال: "لا تفعل يا أمير المؤمنين؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم، وإن ردّهم عما اعتقدوا شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم"([2]).

---

[1]) **سير أعلام النبلاء:للذهبي(ج11/ص371).**

[2]) **تسهيل الوصول لفوائد " ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك "ص(13)**

قال ابن نجيم الحنفي: إنا إذا سئلنا عن مذهبنا ومذهب مخالفينا في الفروع؛ يجب علينا أن نجيب بقولنا: إن مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب مخالفينا خطأ يحتمل الصواب؛ لأنك لو قطعت القول لما صح قولنا: إن المجتهد يخطئ ويصيب[1].

وإن كان النصح مطلوبًا، وبيان الحجة مرغوبًا، فقد سبقونا إليه، فذكروه وطبّقوه وأصّلوه.

وعلى هذا فالاختلاف لم ينقص أسباب الائتلاف بل زادها، ولم يقوّض معالم الحرية بل شادها.

غير أننا نرى في الساحة الإسلامية اليوم صورًا مناقضة، فالبعض يريدون الاحتكار فلا صحة إلا لأقوالهم، ولا صواب إلا في اجتهادهم، ولا سداد إلا في آرائهم ولا حزب مهتم بأمر الوطن إلا حزبهم، وتجدهم يضيقون بكل من يخالفهم الرأي، ولا تجد عندهم روح التسامح ولا أدب الحوار، فتراهم إذا وردت مسألة وكان فيها اختلاف معهم احمرت وجوههم وانتفخت أوداجهم وعلت أصواتهم، وغلت قلوبهم وكأنهم في ميدان معركة لا في مجلس مناقشة، وكأنما هم يحاربون الأعداء لا أنهم يحاورون الأصدقاء، بينما كان ابن قدامة صاحب المغني –أحد أوسع كتب الخلاف الفقهي– "لا يناظر أحدًا إلا وهو مبتسم".؛ لأنه محب مخلص لا مبغض متربص.

إنني ليستبد بي الحزن عندما أرى شبابًا لا همَّ لهم إلا البحث عن الخلافيات، ويعنون بقضايا فرعية هامشية، ويفضي الأمر غالبا إلى التنابذ بالألقاب، وتبادل التهم، وكل ينتقص قدر أخيه، ويحط عليه، بل وينفر الآخرين عنه، ويرقى الأمر إلى التقاطع والتدابر والهجر، وبذلك يكونون قد وقعوا فيما ثبت بلا نزاع النهي عنه في الكتاب والسنة من التباغض ونقص الأخوة.فإذا أردنا الحديث عن الاختلاف فعلينا ألا نقصره على الاختلاف العلمي بل لابد أن نطبقه على جميع أمور الحياة في مختلف المجالات وإنما نركز على الاختلاف العلمي لأنه أكثر وقوعاَ ويترتب عليه الكثير من الأمور.....هاشم بكري.

([1]) ابن نجيم/ الأشباه والنظائر(381/1).